بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٠)

إتحاف القلوب الملهمة ببيان أسباب حسن وسوء الخاتمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [سورة النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧١]

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

أيها الناس : إن هجوم الموت على العبد ونزوله به أمر حتم لا مرية فيه، فكل منا سيموت طال الزمن أو قصر بعد أو قرب، ولكن الذي أقض مضاجع السلف وكدر عيش الصالحين ليس

هو الموت ومفارقة الأهل والأولاد فذلك أمر لا مفر منه ولا مهرب وإنما الذي كدر عيشهم وأقض مضاجعهم هو على أي حالة سيموت عليها العبد وبأي خاتمة سيختم له بها في خروجه من الدنيا، فإن الخاتمة التي يموت عليها العبد هي أعظم شيء وأجله فبها تكون حياته وسعادته أو شقاوته والخاتمة إما أن تكون خاتمة حسنة أو خاتمة سيئة والعياذ بالله والأعمال بالخواتيم كما ثبت عن سهل بن سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : " **إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما العمال بالخواتيم** " متفق عليه(١)

ولخطورة وعظم هذا الأمر كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يدعو بذلك الدعاء العظيم كما ثبت من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يقول " **يا ولي الإسلام وأهله مسكني الإسلام حتى ألقاك عليه** " حسنه الألباني(٢)

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا قال كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول "**اللَّهم ثبت قلبي على دينك**" فقال رجل: يا رسول الله تخاف علينا وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به فقال" **إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها وأشار الأعمش بإصبعيه**" صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ(٣) وعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يقول في صلاته "**اللَّهم إني أسألك** فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ،

---

(١) . البخاري برقم [٦٢٣٣] مسلم برقم [١١٢]

(٢) . صحيح. أخرجه الطبراني في " الأوسط " (رقم – ٦٥٣) السلسلة الصحيحة برقم [١٨٢٣ي

(٣) . «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٢/ ٧١١)

وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ " أخرجه أحمد وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]

فإذا كان هذا حذر وخوف نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فما بالكم بغيره من أمته وممن هو دونه.

وفيه تعليم لأمته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بملازمة خوفهم من مغبة تقصيرهم وإساءتهم قال المُناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الحليمي: هذا تعليم منه لأمته أن يكونوا ملازمين لمقام الخوف مشفقين من سلب التوفيق غير آمنين من تضييع الطاعات وتتبع الشهوات. ا.هـ[٢]

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذ ليس بين القَلب والقُلب إلا التفخيم وما يعقلها إلا كل ذي فهم مستقيم. ا.هـ[٣]

كيف لا يخاف المؤمن اللبيب على نفسه من سوء خاتمته والعبد لا يدري بما سبق له في علم الله وما كُتب عليه في اللوح المحفوظ يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كما عند مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ "**إنَّ الرَّجُل ليعمل الزمانَ الطويلَ بعملِ أهلِ الجنَّةِ، ثم يُختم له عملُه بعمل**

(١) . صحيح.احمد برقم [١٧١١٤] السلسلة الصحيحة برقم [٣٢٢٨]

(٢) . «فيض القدير» (٥/ ١٣٩)

(٣) . «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٤/ ٤٩٥)

أهل النار، وإنَّ الرجلَ ليعملُ الزمانَ الطويلَ بعمل أهل النارِ ، ثم يُختم له عمله بعملِ أهل الجنةِ ".[١]

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال" **لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تعلموا بما يختم له**" أخرجه ابن أبي عاصم وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وفي يده كتابان فقال "**أتدرون ما هذان الكتابان**" فقلنا لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا فقال للذي في يده اليمنى "**هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا**" ثم قال للذي في شماله "**هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا** "فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ، فقال "**سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه فنبذهما ثم قال فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير**" أخرجه الترمذي وصححه الألباني والوادعي رحمهم الله [٣]

وعن أبي نضرة قال: مرض رجل من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فدخل عليه

---

(١) . بَابُ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّه برقم [٢٦٥١]

(٢) . صحيح. السنة لابن أبي عاصم برقم [٣٩٤]

(٣) . صحيح.الترمذي برقم [٢١٤١] الصحيح المسند برقم [٧٧٩] السلسلة الصحيحة برقم [٨٤٨]

أصحابه يعودونه ،فبكى ، فقيل له : ما يبكيك يا عبد الله ! ألم يقل لك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ : "**خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني**" ؟ قال : بلى ، ولكني سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول " **إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة بيمينه فقال : هذه لهذه ولا أبالي وقبض قبضة أخرى ، يعني : بيده الأخرى ، فقال : هذه لهذه ولا أبالي** " أخرجه أحمد وصححه الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ (١)

فتأملوا إلى هذا الأمر وعِظمه وشدته على قلب المؤمن وليس في ذلك دليل على أن الإنسان مجبور على أعماله كلا والله ، وإنما غايته أن الله سبحانه علم من هو أهل لدخول الجنة بطاعته واتباع أمره فكتبه في كتاب اليمين ومن هو أهل لدخول النار بعصيانه ومخالفة أمره فكتبه في الكتاب الآخر قال العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ : كثيرا من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث و نحوها أحاديث كثيرة تفيد أن الإنسان مجبور على أعماله الاختيارية ، ما دام أنه حكم عليه منذ القديم و قبل أن يخلق بالجنة أو النار ، و قد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظ فمن وقع في القبضة اليمنى كان من أهل السعادة ، و من كان من القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة ، فيجب أن يعلم هؤلاء جميعا أن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشورى:١١] لا في ذاته و لا في صفاته ، فإذا قبض قبضة فهي بعلمه و عدله و حكمته ، فهو تعالى قبض باليمنى على من علم أنه سيطيعه حين يؤمر بطاعته ، و قبض بالأخرى على من سبق في علمه تعالى أنه سيعصيه حين يؤمر بطاعته ، و يستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على من هو مستحق أن يكون من أهل القبضة الأخرى ، و العكس بالعكس ، كيف و الله عز و جل يقول ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٦] ثم إن كلا من القبضتين ليس فيها إجبار لأصحابها أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار ، بل

(١) . صحيح.أحمد برقم [١٧٥٩٤] الصحيح المسند برقم [١٢٣٥] السلسلة الصحيحة برقم [٥٠]

هوحكم من الله تبارك و تعالى عليهم بما سيصدر منهم من إيمان يستلزم الجنة ، أو كفر يقتضي النار والعياذ بالله تعالى منها ، و كل من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان ، لا يكره الله تبارك وتعالى أحدا من خلقه على واحد منهما ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[الكهف:٢٩]، و هذا مشاهد معلوم بالضرورة ، و لولا ذلك لكان الثواب و العقاب عبثا ، و الله منزه عن ذلك .ا.هـ [(١)]

فإن العبد لا يدري بما ختم له وهو مازال في ظهر أبيه وما يختم له به عند موته فإن خوف السوابق واللواحق أقض مضاجع أهل العلم والمعرفة والمقصود بالسوابق هو ما كتبه الله في ذلك الكتاب فهذا الذي خاف منه السلف وكان سفيان يشتدُّ قلقُهُ من السوابق واللواحق .

أخرج أبو نعيم في الحلية: قال سفيانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبعض الصالحين: هل أبكاك قطُّ علمُ الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركتني لا أفرحُ أبداً ، فكان يبكي ويقول : أخاف أنْ أكون في أمِّ الكتاب شقياً ، ويبكي ويقول : أخافُ أنْ أسلبَ الإيمانَ عند الموت .

وكان مالك بنُ دينار يقومُ طُولَ ليلهِ قابضاً على لحيته، ويقول: يا ربِّ ، قد علمتَ ساكنَ الجنة من ساكن النار ، ففي أيِّ الدارين منْزلُ مالك.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال حاتمٌ الأصمُّ: مَنْ خلا قلبُه من ذكر أربعة أخطار، فهو مغترٌّ، فلا يأمن الشقاء: الأوَّل: خطرُ يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أيِّ الفريقين كان، والثاني: حين خلق في ظلمات ثلاث، فنودي الملك بالسعادة والشَّقاوة ، ولا يدري : أمن الأشقياء هو أم منَ السعداء؟ والثالث: ذكر هول المطلع

(١) . «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٢/ ٧١١)

فلايدري أيبشر برضا الله أو بسخطه ؟ والرابع: يوم يَصدُرُ الناس أشتاتاً ، ولا يدري ، أيّ الطريقين يُسلك به .ا.هـ[١]

فَتَذَكُر هذا والله مما يُفْزِع القلب ويُقْلِقُ الفؤاد ويُكَدِرُ على العبد عيشه فكيف لا يخاف العبد من خاتمته وهو لا يدري على أي حال تكون، ولا يدري ماذا قد سبق في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نسأل الله أن يحسن ختامنا وأن يتوفانا وهو راض عنا إنه جواد كريم والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد القهار مصرف الليل ومعقبه بالنهار وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحابته الأطهار . وبعد

واعلموا عباد الله أن لحسن الخاتمة وسوئها أسبابا يجب على العباد أن يحرصوا عليها وأن يحصلوها فمن ذلكم وفقكم الله.

الإخلاص لله تعالى في القول والعمل قال الله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف:٢٤]

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كُلَّمَا حَقَّقَ الْعَبْدُ الْإِخْلَاصَ فِي قَوْلِ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ تَأَلُّهُ مَا يَهْوَاهُ، وَتُصْرَفُ عَنْهُ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ

(١) . «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٢ ت الفحل)

﴿وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف:٢٤] .

فَعَلَّلَ صَرْفَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ عَنْهُ بِأَنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ : ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ "**مَنْ قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ** "[(١)] فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ يَنْفِي أَسْبَابَ دُخُولِ النار. ا.هـ[(٢)]

وقال الله عن عدوه الشيطان﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٢]

ولذا ورد في حديث سهل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المتفق عليه أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال "**إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**"[(٣)]

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: إنَّ خاتمة السُّوءِ تكونُ بسبب دسيسةٍ باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سُوءَ الخاتمة عند الموت.ا.هـ[(٤)]

---

(١) . البخاري " بَابُ مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لَا يَفْهَمُوا "برقم [١٢٨]

(٢) . «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦١)

(٣) . البخاري برقم [٢٨٩٨] مسلم برقم [١١٢]

(٤) . «جامع العلوم والحكم» (ص١٥١ ت الفحل)

فتأمل كيف خُذِل هذا العبد عند الموت والعياذ بالله وكانت له تلك الخاتمة السيئة بسبب سوء نيته وفساد إرادته وعدم إخلاصه رزقني الله وإياكم الإخلاص في القول والعمل.

فالله الله بالإخلاص فإن به الخلاص في الدنيا والآخرة.

ومن أسباب حسن الخاتمة الإلحاح على الله بالدعاء وعظيم الالتجاء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يكثر أن يقول " **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** " كما من حديث أنيس وأم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما(١)

وقال الله عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه كان يدعو ربه فيقول ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة يوسف:١٠١]

وإبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام يقولان لبنيهما ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٣٢]

وأثنى ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خُلَّص عباده بدعائهم بقولهم ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [سورة آل عمران:١٩٣]

ومن الأسباب أيضاً :.

الاستقامة على دين الله وعدم الروغان عنه يمنة ويسرة، تارة على طاعة وتارة على معصية فإن من أعظم خطر المعاصي أن العبد لا يدري على أي حال يموت هل على حال الطاعة أم على

(١) . صحيح. الترمذي برقم [٢١٤٠] السلسلة الصحيحة برقم [٢٠٩١]

حال المعصية قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَٰٓؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فُصِّلَت:٣٢]

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهِ ،وقال ابن زيد : عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَعَلَى طَاعَتِهِ. ا.هـ(١)

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: استقاموا -والله-لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. ا.هـ(٢)

وهذا جمع للسببين الأول والثاني وهما الإخلاص لله والاستقامة على دين الله .

وقال جل وعلا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق:٤]

وأعظم ما ييسره الله للعبد إن اتقاه هو ثباته عند الموت.

وقال جل وعلا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل:٧]

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾. يَقُولُ: فَسَنُهَيِّئُهُ لِلْخَلَّةِ الْيُسْرَى ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِمَا يَرْضَاهُ اللَّهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا ، لِيُوجِبَ لَهُ بِهِ فِي الآخِرَةِ الجنة.ا.هـ(٣)

---

(١) . «تفسير الطبري جامع البيان – ط دار التربية والتراث» (٢١/ ٤٦٥)

(٢) . عند نفسيره لسورة[فُصِّلَت:٣٢]

(٣) . «تفسير الطبري جامع البيان – ط دار التربية والتراث» (٢٤/ ٤٧١)

ومن أسباب حسن الخاتمة الصدق مع الله في طلبها فإن العبد إذا صدق مع الله عزوجل في ذلك فإن الله يصدق العبد فينيله إياها قال الله تعالى ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [سورة محمد:٢١]

وقال جل وعلا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنفال:٧٠]

وتأملوا في ذلك الرجل الذي قتل مائة نفس حين صدق الله في طلب التوبة وحسن الخاتمة أناله الله تعالى إياها بسبب صدقه في طلب ذلك فما زال يطلبها ويسأل على أعلم أهل الأرض فدل على راهب فلم يجد عنده جوابا سديدا فتله ولم ييأس بل سأل ثانية لعله يجد سببا لذلك وهذا يدل على صدقه وحرصه على نيل ذلك بل وخروجه من قريته وبلده بحثا عن ذلك فلما علم الله صدقه وحرصه أناله إياها بل وأمر الأرض التي يريدها أن تدنو منه فكانت له تلك الخاتمة الحسنة عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: "**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم من يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق فأتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى**

الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة " وفي رواية "فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها" وفي رواية "**فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له وفي رواية قال قتادة قال الحسن ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها**". متفق عليه [١] بل تأملوا إلى هذا الرجل وصدقه في ذلك وكيف أناله الله إياها عن شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فآمن به واتبعه ثم قال أهاجر معك فأوصى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه فلما كانت غزاته غنم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال ما هذا قالوا قسم قسمه لك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فأخذه فجاء به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: ما هذا ، قال:" **قسمته لك**" قال: ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمي إلى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال" **إن تصدق الله يصدقك** "فلبثوا قليلا ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتي به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ "**أهو هو**" قالوا نعم قال" **صدق الله فصدقه**" ثم كفنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في جبته التي عليه ثم قدمه فصلى عليه وكان مما ظهر من صلاته " **اللّهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا أنا شهيد على ذلك** " رواه النسائي صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] فلا إله إلا الله ما أعظم الصدق مع الله

---

(١) . البخاري برقم [٣٢٨٣] مسلم برقم [٢٧٦٦]

(٢) . صحيح. السنائي برقم [١٩٥٣] الصحيح المسند برقم [٤٧٤] صحيح الترغيب والترهيب برقم [١٣٣٦]

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه لما صدق الله في طلب حسن الخاتمة والموت شهيدا بلغه الله إياها بل وأتاه السهم حيثما أشار أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الصدق معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

وليحذر العبد مما يكون سببا في سوء خاتمته والعياذ بالله وأعظم ذلك هو عدم الإخلاص لله سبحانه وتعالى فإن الرياء وعدم الإخلاص من الأعظم الأسباب في سوء خاتمة العبد فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ **"إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار"** متفق عليه(١)

ومنها كذلك الذنوب والمعاصي وانتهاك الحرمات فإنها والعياذ بالله تخذل العبد قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤]

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم. وعن أبي الدرداء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: " **لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً ما لم يُصِبْ دماً حراماً فإذا أصاب دَماً حراماً بَلَّح**" رواه أبو داود صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ (٢)

قال العلامة العباد حفظه الله: قوله: (**معنقاً صالحاً**)، هذا تمثيل وتشبيه بالذي يكون خالياً من الظهر ويسير سيراً خفيفاً، والعنق: نوع من السير وهو أخف من النص -كما جاء في حديث

(١) . البخاري برقم [٢٨٩٨] مسلم برقم [١١٢]

(٢) . صحيح. أبي داود برقم[٤٢٧٠] الجامع الصغير برقم [١٣٦٥١]

الحج وانصرافهم من عرفة إلى مزدلفة، (كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص) أي: أنه كان يسير سيراً خفيفاً، فإذا وجد فجوة أسرع، وزاد في الإسراع. قوله: **(فإذا أصاب دماً حراماً بلح)**، أي: أعيا وانقطع وهو ضد العنق والسير؛ لأنه كان يسير سيراً خفيفاً ليس فيه سرعة شديدة، ولكنه إذا أصاب دماً حراماً بلح، يعني: أعيا وصار بخلاف الحالة الأولى، وذلك بسبب هذا الذنب، فهو مثل الإنسان الذي يسير وسيره فيه نشاط وقوة، ولكنه إذا حصل هذا الذنب فإنه يتحول إلى العي والتعب ولم يستطع السير. ا.هـ[١]

قال العلامة ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامع العلوم والحكم: إنَّ خاتمة السُّوءِ تكونُ بسبب دسيسةٍ باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سُوءَ الخاتمة عند الموت. ا.هـ[٢]

فنعوذ بالله أن نخذل عند الموت ياعباد الله. فالله الله في مراقبة الله في الخلوات قال بعض السلف: من أعظم أسباب الانتكاسات ذنوب الخلوات وتأملوا إلى هذا الحديث العظيم المخيف فعن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ " **لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباء منثورا** " قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا ألا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال"**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلو بمحارم الله انتهكوها** "

---

(١) . «شرح سنن أبي داود للعباد» (٤٨٠/ ٣ بترقيم الشاملة آليا)

(٢) . «جامع العلوم والحكم» (ص١٥١ ت الفحل)

أخرجه ابن ماجة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصححه الألباني[١]

أسأل الله بمنه وكرمه أن يرزقنا وإياكم حسن الخاتمة وأن يرزقنا طاعته والاستقامة على دينه وأن يتوفانا وهو راض عنا إنه جواد كريم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله وخليله ومن تبع دينه إلى يوم الدين.

(١) . صحيح.ابن ماجة برقم [٤٢٤٥] صحيح الترغيب برقم [٢٣٤٦]حسن. الصحيح المسند برقم [١٨٩]